رجل اسمه شريف نادر

قصة بقلم عبد الستار ناصر

قالوا لي ان (شريف نادر) يبحث عني منذ ثلاثة ايام وانه قد فتش في الكازينوهات والبارات وفتش في دليل التلفون ، فلم يجد لي من اثر فيها ، وبالتالي عاد الى منزله بحقد فائر .

وشريف نادر صديق عرفته في القطار العائد الى بغداد على بعد يتجاوز المئة كيلومتر من الحدود العراقية التركية ، وكان آخر ما رايت في عينيه خيال ابتسامة لم ادقق في معناها فقد تعبت يومها من الحنين الى بغداد .

ثم نظرت في عيون الرجال وكنتقد حاولت ان أضحك لو لم اتحسس في داخلي عروقا يتصبب منها بخار مملح نفث من جسدي بعد هياج اصابني عند مجيء الرجال ، وتاكد لي ان ما يصيبني من رعشة مبهمة ليس غير شيء طفيف سرعان ما يزول ، حيث تمكنت بشيء من الرجولة وبشيء من الحذر ان اسأل :

ـ ماذا قال لكم شريف نادر ؟

وكان الرجال الاربعة يجيبون على سؤالي بنظام دقيق كانهم مدربون عليه من زمن طويل او انهم ـ كما يبدو ـ نتاج تربية عسكرية :

قال الاول : انه يريد ان يراك الليلة .

قال الثاني : يجب ان تكون حاضرا .

قال الثالث : كان يبحث عنك منذ ايام .

قال الرابع : ماذا نقول له يا سيد ؟

لمحت عند ذاك مجموعة من الرؤوس الهشة تنتظر الجواب، قلت لهم باني سوف أكون في منزله عند الساعة العاشرة ليلا ،وعندها سقطت آهات نظيفة من رقاب الرؤوس وهم يقولون بارتعاشة خلتها لخادم ذي حنجرة انبوبية ذات اربعة اصوات ، يخاف سيدهالجديد :

ـ نحن جميعا متفقون على ان نشكرك الان .

ـ سوف نقول له ان مجيئك في العاشرة .

ـ ان هذا مهم كما تعرف !

ـ لم تكن متعبا كما اعتقدنا سابقا .

وهجست فوق لساني حروف كادت ان تنزلق ببطء بارد :

ـ ولكن ..

تساءلت برعب بالغ : كيف يحدث هذا بعد فراق خمسة اعوام وشهرين ؟ ثم لماذا يبحث عني ؟ هل من السهولة ـ هكذا ـ ان اذهب اليه وفي منزله أيضا ؟ ان هذا كله بالنسبة لي اعمق من رمز عابر يمكن اغفاله ، ثم هجست من جديد ان هناك ما يشبه اللعبة السافرة تربطها برأسي مجموعة من الرجال ربما دون سبب ، الى الحد الذي التهبت فيه كالفاز السائل حيث يمكن ان يراني اي فرد منهم ويمكن انينقلني من وعاء الى وعاء وانا ملتهب بالنار الزرقاء الجميلة ، حينئذ فقط عرفت ما تعنيه اللعبة . او ربما تعمدت تفسيرها مع نفسي كي اجد الراحة والهدوء فقد اصبحت في ثوان معدودة اشبه ما اكون بهيكل ميكانيكي يقطع المسافات الطويلة دونما حس ينوء بثقله،ودونما شعور معين . انها لعبة سهلة يمكن ان يفعلها اي انسان فكيف اذا كان شريف نادر هو الذي يمتهن اللعبة ؟

ادركت عندها باني سوف اهمله ولن اذهب ، غير ان خوفا مبهما يجرني الى هذا الموعد . ربما كنت أخافه بشيء من الطفولة والهوس. فانا اذكر جيدا اني كنت ضعيفا امام عينيه ، امام آخر التفاتةمنه، وهذا يعني لديّ الكثير ، ان شيئا مبهما يربطني الى الشارع الذي يؤدي الى منزله ، هناك استطيع الولوج الى نهاية الموضوع مهما كان شائكا ومهما كان غريبا فانا اعرف جيدا باني مهما فعلت ومهما اختفيت لن استطيع اغفال عينيه او نسيان الرجال الذين ارسلهم، فما يفعله شريف نادر يعجز الاخرون ـ مهما اختلفت مزاجاتهم ـ عن فعله دون شك ، لذا كان عليّ ان اقطع الطريق بصمت . يكفيني ما احسه من شرور يغلفها وجود هذا الرجل المبهم .

خطفت امام عينيّ صورة دقيقة لوجه صديقي شريف نادر :شاربان رماديان يقطعهما من الوسط خط من اللحم يتصل بنتوء انفه الحاد حيث المنخران الواسعان وقد برزت منهما شعيرات فحمية وانفه على طوله وبشاعته ايضا لم يقلل من قوة عينيه ، فهما ان حاولالبعض ان يراهما بدقة فلا بد انه سيخجل من سحرهما او يجفل منهما ذعرا وخشية . قد يفهم سرهما وقد يخسر فيهما بعضا منرباطة جاشه ، ذلك كله باستثناء ما يملك من غرابة في الحديث عن نفسه ربما لكونه مملوءا بهذه الطموحات العجيبة المبهمة فقد يقول في لحظة انه سيرحل الى باريس دون عودة ، ثم يقول ان الرحلة قد تأجلت ريثما ينتهي من قتل تاجر معين او قتل رجل بارز من رجال الدولة.

لن يستطيع فرد ممن عرفتهم ان ينساه مطلقا ، ولم يستطع احد ان يكذبه علنا ، كما انه في احيان كثيرة جدا يفعل ما يقوله تماما، فعندما كنا في القطار قال لي بشيء من الهزل انه سوف يوقف القطار وانه بعد ان يوقفه ستحدث في المقصورة رقم ١٢ جريمة قتل لم اشهد مثلها ، وبعد ساعة واحدة وعندما انتهينا من شرب شيء من الخمر السيىء قام شريف نادر الى قضاء حاجة ملحةولم تمض غير دقائق حتى وقف القطار بين ذعر الركاب وهياج الصافرة القوية، وحين حدق الركاب من نوافذ القطار وجدوا ان شيئا لم يحدث ،ولما

سال المسؤول العام عن سبب ايقاف القطار اشار عليه شريف نادر ان ثمة جريمة قد حدثت في المقصورة رقم ١٢ وكانت هناك جثة طويلة تغرق في الدم الحار ، يتدفق من ناحية الرقبة كنافورة عتيقة يتقطع فيها جريان الماء .

يومها نظرت في عينيه ، سألته عن سر هذا الحدث المروع، فقال لي ان ما يقوله شريف نادر لن يخيب مطلقا ، كما وانه لن يحتمل الشك ، غير ان ما احسسته رغم ذلك في شريف نادر انه يكذب ايضا، فقد حاول ان يفعل شيئا معينا قبل ان افارقه في المحطة ولم يستطع فكانت خسارته مخجلة ، او مضحكة فيما اذا قورنت بما رأيته في مقصورة القتيل رقم ١٢ .

ربما كان هذا شيئا موجزا عن شريف نادر وما يعرفه الاخرون عنه هو محض ادعاء كاذب فقد يسمعون عنه شيئا ثم تزداد حماوة الرغبة في المبالغة السيئة حتى بدأ بين الناس الذين يعرفونه مثل طيف اسطوري يرفض ان يكون فيه عيب، ومن هنا اصاب شريف نادر نوع شاذ من الغرور الذي بدا طافحا في عينيه مثل النمش ، فهو كما سمعت عنه قبل عام واحد تمكن ان يراهن على قتل عائلة برمتها في ليلة عرس يشهدها غالبية اهل المحلة وكان قد استطاع ذلك مع بعض رفاقه المتهورين دون ان يترك خلفه اشارةتقول ان الفاعل هو السيد شريف نادر ، وما ان سمعت هذا الخبر حتى تحسست في داخلي نهاية اشياء كثيرة ، فانا الوحيد الذي يصلح ان يكون شاهدا وانا الوحيد الذي يعرف ان جريمة القطار تمت على يديه ، واثبات هذا كله بسيط جدا ، غير ان الرجال الذين جاءوا قبل ساعتين والرجال الذين يسندونه بقوة مريعة والذين يجهل الجميع العدد الحقيقي الذي يشكلونه يجعلني كل هذا عاجزا بل شبه ميت يحتضن الجريمة بل ويشارك فيها ، سواء برغبته او دون رغبته ، فماذا يمكن انيفعل انسان مثلي بين حالات همجية كهذه .

ـ انا عاجز . هذا شيء ليس من شك فيه ، واي واحد آخر في مكاني يعجز ايضا ، فهذا كله اقرب ما يكون الى الحلم العابر.

وقبل ان يجيء المساء كنت مرتخيا على جدار متهالك ثم ذهبت الى بار قريب شربت فيه قنينة من البيرة الجيدة ، توالت في الكأس الدبق ايام طفولتي منذ ان فطنت على هذا الكون الغريب . جعلتانظر في فقاعات البيرة نافخا برذاذها على سطح المنضدة ، مرت فيالكأس وجوه الناس الذين اعرفهم ، اصدقاء واقارب ، ابى وامي واخوتي، ثم وجه شريف نادر رافعا يديه الى أعلى فقاعة في الكأس يقول لي ان الدنيا لم تزل بخير وان الشر لن يتحول الى هيكل يدمرني .

ـ مثل محتال بائس يا سيد داوود .

ثم خرجت بالتواء بسيط في العمود الفقري نتيجة اني لم اعتد الشرب جيدا ، ضحكت لنكتة قالها النادل ربما كان معناها (ان مجموعة المطربين العراقيين كلها تتناول نصف مكافئات البيتلز على اغنية واحدة) وكنت احد الذين يكرهون هذه المجموعة العجيبة من البشر ربما لكونها اكثر مني شهرة واكثر مني مالا ، وكانت الضحكة التي رميتها في وجوه الزبائن تشبه الى حد ما وقوفا مفاجئا لسيارة عتيقة ، ولكن ليس هذا ما كان مهما بالنسبة لي فانااعرف لون هذه الاشياء واعرف (سلم الشهرة) في العالم ، وكيف يمكن ان تتسلقه النساء مهما تسابق فيه الرجال العظام . ورجعت بذهن منهك الى شريف نادر اتساءل برغبة مريضة عن السر الذي يدفعه للبحث عني ؟

كنت اعرف نوعية التجارة التي يمارسها صديقيهذا، كنت اقول له بعناية كاذبة ـ او منافقة ـ ان الدولة سوف تشعر به ذات مرة وتشنقه كما يشنق اللصوص والجواسيس ، فقال لي ان القطار الذي عاد بنا الى بغداد كان مليئا بالتجار الذين يمارسون تجارته ، وان القتيل الذي رايته انما كان واحدا من منافسيه الخطرين ، وان ما يمكن ان يفعله في رجال الدولة يشبه طقطقة الاصابع ، ثم اغلقنا الموضوع وضحكنا معا بخبث قذر وتركته لخمسة اعوام وشهرين كنت خلالها اتسقط بعض اخباره المهمة ، بعدها جاء يبحث عني كقط جائع .

كدت يومها اغرق في عتمة قاسية من الغموض الذي يفرزه شريف نادر في رأسي ، ورغم ان الساعة اصبحت الثامنة والنصف ، ولميبق على لقائي به غير ساعة ونصف ، فقد حاولت اللجوء الى قنينة ثانية من البيرة فانا اعرف ما يعنيه التعامل مع هذا الرجل . ودخلتالبار من جديد وتسلقت العتبات التي تسبق البار ورغم انسي لم اقع كما تهيأ لي فقد سمعت من يقول لي بتجشوء كريه :

ـ هل أنت داوود ؟

قلت له :

ـ اعتقد اني داوود ، ماذا تريد ؟

قال بعد ثانية واحدة وهو يرفع اصبعه الى السماء :

ـ هل أنت متأكد ؟ ام انت تعتقد ؟

قلت له وانا احاول الابتعاد عنه :

ـ انا متأكد بانيداوود ، لماذا ؟

ولم يجب على سؤالي ، اهملني بشيء من الهزء ، مما دعاني اتحسس هيأتي بخوف زائد وربما بخجل ثم بدأت اشرب القنينة التالية: ارى في فقاعاتها وجه شريف نادر يكبر ، مثل بذرة عماد الشمس وهو يحذرني من عدم المجيء ، وتشقق الكأس عن جريمة القطار وجريمةالعائلة في ليلة العرس مما دعاني الى مراقبة الساعة كيما تصل العاشرة .

لم اكن هادئا مع اني حاولت هذا ، وبدأت اسقط في هوة مخجلة، تزاحمت الخواطر الغبية في ركن معتم من رأسي ، مددت يدي الى رأسي ، شنقته بين اصابعي بقسوة ، ان شريف نادر لن يرحمني من الهواجس التي تأكلني . اعرف : ان شريف نادر رجل مخرب يتجول في رأسي مرتديا اخشن الثياب بحيث انه استطاع قبل مروره الى عنقي ان يفتت ما املك من عواطف طيبة ثمينة .

ـ هل انت داوود ؟

حقا ، ان شيئا باهتا وغير ذي قيمة يجعلني اجرجر خلف ظهري هذا الرعب الخفيف والعار الذي بلا معنى لمجرد ان احدا يسأل عن اسمي ، وهذا كله من جملة اشياء ليست عذبة تتقعر لحظة بعد لحظة في هوة واسعة من اعماقي، فماذا يعني ان أكون داوود او غيره بالنسبة ـ لعابر ـ لم اكن قد رأيته في حياتي ابدا ؟

اذن قد يكون ثمة ما يساعد هذا الشريف النادر على ازدياد خوفي منه ، فربما كان هذا تابعا غبيا من اتباعه العاديين جاء يؤكد الذل في رعشة عينيّ وفي اهتزازات هيكلي تجاه اسئلة جاهزة وسهلة. انها اللعبة التي يعشقها شريف نادر فلم تعد في جعبته ايمارغبة في اللعب العادية التي يمارسها بقية خلق الله في كل مكان ، انه يعشق هذه الخصوصية البوليسية وباستطاعته ان يحرق الوجوه الضعيفة وجها بعد اخر كي يضحك ملء حنجرته ، كي يضحك هذا القاتل المنحط .

ـ هل أنا داوود ؟ نعم داوود ، ثم ماذا ايها المعتوه ؟

وكالعادة ، ليس من جواب ، فانا أغرق تماما في غباوة تلح على عقلي ، اعرف جيدا ان الشارع خال ، وان الناس في هذا البرد القارص يدسون انوفهم في خصلات النساء تاركين داوود تحت رحمة هذه اللعبة .

ـ ماذا دهاني ؟

شريف نادر يسقط في رأسي ثآليل مزحومة بالجراثيم البيضاء ، يتسابق مع نفسه الى شرايين رأسي يمحوها وريدا اثر وريد ،يضحك للجروح التي نزفت ، يضحك ، شريف نادر يجهل كيف هو الحزن .. يمد يديه تحت الدم ، فيسبقه الحقد الى رؤية الشرايين المفكوكة عن آخرها ، فيفك اسنانه عن لهف حاد ، ورغبة تطفح بالرعب المميت شريف نادر موجود في رأسي بهيئته الانيقة الرائعة ، مرتديا بذلته

الثمينة كما ان حذائيه يتارجحان في المسافة ما بين عيني ، تتزاحم عند المنخرين وجوه الرجال الذين يسندونه بمثل هذه القوةالمريعه.

كانت القنينة قد انتهت من ثلاث رشفات ، نزلت بعدها عتبات البار متجها الى منزل شريف نادر . الشارع يضيق بي وليس من احد هنا ، الدنيا برد والعالم مملوء بالماء ، تبللت ابتداء من الرأسومشيت هادئا انظر الى كل شيء حولي ، اعرف ان الشمس قد اختفت منذ حين كما اعرف ان الماء الذي غطاني بحنان موجع قد تسلل الى طيات ثيابي ، اعرف ان شريفنادر يجلس الان خلف مدفئة رائعة ، وانه مطمئن تماما الى مجيئي .

لماذا يلعب الاغنياء هكذا ؟ اوروبا مليئة بكازينوهات اللهو والمتعة ، لماذا هنا فقط ؟ تهويمات كالسديم الذي يلفني ، اذا رجعت الى الوراء اسقط في مدار الاجابات واذا مشيت اليه سأركع في صدأ الذل الذي يعلق كالسخام في جبهتي ، مثل السخام بالضبط (هل يمكن ان تهرب يا عزيزي داوود ؟) فهناك لن يجيئك ايما سؤال ولن تجد النهار الذي طال عليك ، شريف نادر يرفض ان يعطيك فرصة ، ان فرصتك الوحيدة في أن تهرب (هل يمكن ان تهرب يا داوود ؟).

ـ لن تستطيع .

ـ مهما حاولت لن تستطيع !

كما لو اني فشلت ، فهانذا قد ارتضيت بعقلية مريضة ان افكر في الهرب ، كأني ـ بين هذه الاصوات المدمرة ـ لم اجد غيرها فكرة بعد ، ونسيت بين حفنة ما نسيت من اشياء هذا النداء الخفي الذي يزعم لي بسذاجة طفولية ان خوفي مرده الوسواس الذي يعبث بي، فمن تراه يكون هذا الرجل الا صديقا وصديقا يعرف ان يبتسم بحلاوة ، ربما كان قاتلا ـ أجل ـ وربما كان مدافعا عن نفسه ـ لا ريب ـ فما تراني اعيب عليه ذلك ؟ وماذا دهاك اذن يا داوود ؟

قلت لنفسي تبا لهذه القدرة الفتاكة على خلق هذه التهيؤات البلهاء ، كلها مسافة امتار وتعرف لون الحقيقة ، التي لوثتها قزحيتك الحولاء ، انك في منزله سوف تكون محترما ، فهناك اكثر من رجل واحد سوف ينظر اليك بخشوع ورهبة تفوق حد التصور ، بل سوف يقال عنك (صديق شريف نادر) وهذا شرف اكبر من تصوراتك العريضة ، واكبر من طموحاتك الساذجة البريئة .

ـ صديق شريف نادر ؟

ـ نعم ، وماذا ينقصك ؟ لا شيء ، انت كامل ، انت مثله تماما .

ـ مثل شريف نادر ؟ ما هذا الكذب ؟

وفي غمرة هذه اللوثة الحمقاء ، هجست ان يديّ تمران فيجيوب البنطلون ، ثم اقطع الشارع بارتضاء مكذوب الوح من خلل الضباب الجميل كأي (مقتنع) من الرهط الذي كان يسير في الصباح ، مثل أي موظف مقتنع بتوقيعاته على سجلات الناس والدوام . قانع ؟؟ كم يبدو ثقيلا هذا القناع الذي اخذ يغمرني ، ثم يجعلني ـ رغم انفي ـ منفرج الفكين كمن يضحك لنكتة معادة الف مرة ، ثم في لمحة عين ادركت مرة واحدة اني خائف ، واني اسقط من جديد في تلك الهوة البئرية الواسعة .

كان الطريق الى شريف نادر يفصله الجسر العريض ، عندما مشيت من اوله كنت ارى لون السماء ولون الماء ولون الحجارة ، تتشابه في شيء ما بدا كأنه خليط من لحوم الكلاب ولحوم الخراف ولحوم البشر ، تتشابه في كونها لحوما ، تتشابه في انها ذات الوان لم تقع من العين بسهولة ، وتأكد لي ـ رغم انفي ايضا ـ بأني قد جننت من تلك الهواجس التي تناثرت في مسامات رأسي كبثور نمشية تلفقت جميع اوردتي ، وريدا اثر وريد ، مثلما مزقها شريف نادر عبر مخاوفي وسقوطي ، فلم يزل السيد المرعب يضحك من هذه اللعبة التي يدورها في رأسه ، لعبة كبيرة ليس من ألم يخزها غير وجوده فحسب ، شريف نادر يعرف نوعية هذه اللعبة ، فهو يملك ان يقتل متى شاء ، يملك ان يضحك كيفما شاء ، يملك ان ... آه .

فجاة وبعد وقت طويل كما اظن ، نهضت عن الرصيف بعدما ايقظني حارس المنطقة ، قال لي :

ـ اما يكفيك قليل من الخمر ؟

واظن اني فتحت عينيّ فلم اتبين شيئا من ملامحه ، وكدت اسقط من جديد فاسندني اليه بقوة واخذ يجرني الى مكان اكثر عتمة ، وهناك بانت لعيني كومة عيدان غليظة متشابكة على هيئة كوخ جلست في ركن منها دونما أي حس معين ، ليس من خوف ، ليس من هواجس تسقطني او ترفعني ، نسيت في لحظة ما ان الحارس هو الذي جاء بي الى هنا لو لم اسمعه يقول :

ـ ما بالكم تكثرون من الشرب هذه الايام ؟

ـ عمن تتحدث ؟

ـ اتحدث عن شباب هذا الشارع ، انهم يشربون بلا اهتمام لشيء.

ـ ..... ؟

نظرت الى مكان الصوت ـ بأنهاك وعجز ـ فلمحت وجها هادئا وعميقا ، علامة تشبه الوشم في الجهة اليسرى اسفل العين ، أنف متآكل من جهة الفاصل ما بين المنخرين ، تقاطيع لحمية كالجروح على امتداد الوجه العريض ـ وجه هادىء عميق ـ ايقنت عندها اني قد صحوت . سألت عن الساعة ، قال انها الواحدة بعد منتصف الليل ، سألته باغفاءة تارجحت بها الى اليمين :

ـ متى تاتي الساعة العاشرة ؟

هزّ الحارس رأسه ولم يجب ولما سألته ثانية حدق ما بين عيني بشيء من الهزء واجاب ان الساعة العاشرة قد مرت منذ ثلاث ساعات . ولم اكن اريد ان اصدقه ، رفضت ـ رغم ايماني بما قاله ـ ان اصدق ان الساعة العاشرة قدمرت . امسكت معصمه وقبل ان احاول فعل شيء معين اخذت ابكي دونما حرج ، وانقلت رأسي بما يشبه كثبان الرمل تتوالى كالسهام في اذني :

ـ شريف نادر لن يصدق هذه الاعذار .

تتبلور هذه السحب القريبة في رأسي وتندلق كالجرار المائية في ادق عروقي فتجعلها مثل شيء باهت ليس ثمة ما يعنيه ، تتبلور في رأسي اخاديد كالعروق المنفوخة تنسل من امعائي كشيء مضغوط ينفتت ويدخل جمجمتي ماء فاتر كان قد تبخر من جراء خوف طويل وفقاعات مريضة ، شيء ما يساعدني على ان اكون هادئا ، لم يبق غير ان اجرجزه الى جسدي كي يرضيني ، فها انا اسقط في مدار من الاجابات الوقورة الغامضة كما اني سوف اركع في صدأ الذل الذي يعلق كالسخام في جبهتي ، اسقط مثل خليط اللحوم جاهزا للتلوث والمضغ ، جاهز لكل فعل يوميء به شريف نادر ، فهنا فقط تأكد لي بخواء وعجز وبحق اني قد جننت من تلك الهواجس ، وهذا هو السيد شريف نادر يشير بسبابته الى داوود ، يومض في اذهان جماعته ان يموت هذا الداوود فهو قد خرق موعده بعد تأكيد سابق وبعد ان جاءه الشهود الاربعة :

ـ شريف نادر لن يصدق .

ـ من يكون شريف نادر ؟

أووه لم ازل اذن مع هذا الحارس ، انا يقظ من غفوتي ، لماذا بقيت بجانبه كل هذه المدة ؟ كان اجدى بي ان اخطو الى شريف نادر ، اقول له اي شيء فمهما اقل لهو افضل من رفض موعده بهذا الشكل الذي انتهيت اليه . وسمعت الحارس يقول لي بهدوء غريب وطيبة غير طبيعية بالمرة :

ـ من تراه يكون هذا الرجل ؟ كنت قد سالتك هذا السؤال ولم تجب .

انكسرت لحظتها عن عيني اشياء واخزة ، وانحدرت صوب عالم كنت اجهله ، تساءلت لماذا الخوف ؟ بل لماذا كل هذا الخوف ؟ ماذا يمكن ان يفعله هذا الشريف النادر ؟ كان ـ بمعنى ـ صديق ، اغمرني يومها باهتمام طافح فلماذا يكون هذا الخوف كله جسرا الى رأسي ، وماذا تراني اقول لهذا الحارس الطيب ؟

بوقار تلوكه الدقائق ، انتهيت الى ابتسامة صفراء يحسها الحارس

مثل الكذب الطافح من جلدي فيسألني ، واغفل ما يقول ، يسألني اكثر من مرة بنفس البرود ، ثم انحدرت كالماضي سيول من الدمع ، ويسألني، أرى الآن ان الساعة تمر دونما امل في شيء ، يأتي الصباح رويدا رويدا وكنت قد اخطأت في اشياء كثيرة ، لماذا لم اجب على هذا الحارس ، ربما لا أملك ما أقوله وانا مغرق في هذا السيل الجارف من البكاء الذي انخرطت فيه ، ونطلعت جيدا الى ملامحه كأني اتأكد ان يكون هذا نفس الرجل الذي جاء بي الى هنا ، فكان هدوؤه وعمق صمته ونفس العلامة التي تشبه الوشم في الجهة اليسرى اسفل عينيه دليلا على ذلك ، وازداد بي الحرج ، فقد انتهت مع هذا الرجل حدود قوتي ، فهو يراني أحدق في عينيه ، ويراني أبكي ، ويراني أتمخط ، وانا بعد هذا كله نطقت باشياء ربما نسيت ما تعنيه بالنسبة لهذا الرجل الغريب عني . وانبثقت خلال المتاعب الصغيرة رؤى مشوهة تلاعبت بين عينيّ وخلفهما تومىء باني لن احتمل البقاء وحدي وتأخذ مني بين ثانية واخرى عذوبة هذه النسمات التي كانت ترد عليّ من جانب النهر ، ثم توضحت هذه الصورة التي اعاني منها ـ ان اكون وحدي ـ وقد تدفقت شوائب هذه الرؤى الصغيرة كلمحات هائجة لوجوه الناس الذين عانيت منهم ، ووجوه احبائي الذين يهملونني غالبا قبل اهمالي لهم ، وكل هذا يوزن جلدي مع قوة هذا النكران البائد ، وانتهي الصور القبيحة الى سؤال عادي يصمني بالذل كلما هجسته في خلايا جبهتي المعروقة :

ـ هل انت داوود ؟

وتعود الصورة ، وتراني اقول بلهفة تعوم بي في كتلة الماء الذي يمطرني من فوق فأغرق فيه بلا ضحك ، وبلا بؤس ، وبلا احساس :

ـ اذا كنت داوود ، ماذا تراك تريد مني؟ وان لم اكن داوود ، ماذا عليّ ان افعل ؟

كل الوجوه تعني شريف نادر ، الحراس الليليون ورجال الاعلانات الملونة وانتهاء بالشحاذين المشردين على طول الشارع ، كلها تعني ان شريف نادر موجود فعلا ، وانه يراني ويتبعني سواء رضيت ام أبيت ، فهو يدرك الان وفي هذه الساعة بالذات ان لعبته تجيد الرقص امام ذهنه :

ـ انت ترقص يا داوود ؟

ثم حدقت في عيني الحارس وقلت لنفسي :

ـ هذا يكفي ايها المجنون ، شريف نادر رجل طيب حتى انه لا يجيد اية لعبة .

ولكن ما الذي يحدث بالضبط ؟ فهذا رأسي يحترق ، يتوزع بين البلل والثياب الباردة والشارع الخالي ، ارى من بين هذا كله يدين انيقتين ووجها سمينا مملوءا بالخبث ، فهل تراني اجرؤ ؟ هل استطيع أن اكظم انحداري الى أسفل من هذا الدرك المعيب ؟ الست مثل الاخرين رجلا يشرب من فوهة قناني البيرة ، رجلا ملء عظامه ولحمه رجولة، ما الفرق ، ما الفرق بيني وبينهم ؟ اترى ثمة فرقا بيني وبين شريف نادر ؟

ـ ان كل هذا يدخل في باب العار فأنت مثل الآخرين تماما .

ـ هل انا مثل شريف نادر ؟ هذا هو المهم .

ـ ليس مهما ان تكون مثله بالضبط ، فكل انسان في العالم له شخصيته وادراكه ومزاجه الخاص ، انت داوود وذاك شريف نادر، ان الفرق بينكما اشبه بالفرق بين اسميكما . .

واستمرت هذه الدغدغة الدقيقة من الحوار تلف شرايين رأسي فتنفك تارة ثم تعود الى تشابكها كي ازداد رعبا تارة اخرى ،وبالتالي اقف كأي عاجز عن الفهم اتابع رصد هذه الدغدغة المعيبة ، عل هناك ما استطيع الانتهاء الى الايمان به ، ثم كالعادة تراني اخسر نفسي واحس بالمرض في اجزاء مهمة من هيكلي فاندس في كتلة السديم الهائلة أغرق فيها كي أبتعد ما استطعت البعد عن الاحساس ببقية جلدي وبقية اعضائي التي اراها بشفافية وذعر، ثم انهل بعد لحظة نثار ، من البرد طواني بعشق قاس ، حتى وجدت ان عظامي قد انكمشت في مكان ضيق ككتلة واحدة غير مجزأة وقلت للحارس بذل لم ادرك سره :

ـ اشعر بالبرد

ـ ماذا قلت ؟

ـ اشعر بالبرد يفتك بي .

ولم انتظر غير ثوان حتى وجدت معطفه الشتوي الخشن يرحمني من نكاية البرد ، ولم افل له اي شيء فقد اهتممت عندها بكتلة العظام وقد انفكت بهدوء ساحر لذيذ ، حتى وهي تعود الى هيأتها الاولى بقيت صامتا لم اقل كلمة ، حتى اني كنت اقول في ذات نفسي ان (شكرا) بسيطا يمكن ان يظهر الان فوق شفتي بهذه البساطة التي اتحدث فيها مع نفسي ، ان هذا الرجل الهادىء العميق يزيدني في كل ثانية تمر بمشاعر لم اعشها من قبل مطلقا ، كما اني اعرف جيدا ان ليس لقناني البيرة التي شربتها من اثر معين بهذه الترسبات الوجلة الموجعة التي تجعلني مثل طفل اجهده الخوف ودمرته هواجس عقله بوعي مغلوط فارغ غير واضح .

ـ سألتك من يكون شريف نادر ؟

الان : يجب ان اقول له ، ان الصمت هذه المرة يسقطني تماما من عيني نفسي فكيف بي احمل معطفه تاركا جسمه البارد المسكين تحت رحمة هذه النثارات الجليدية المتساقطة مثل الرعب الكابوسي ،وقلت له بتقطع بارد ربما بدوت به مضحكا او سخيفا :

ـ شريف نادر صديق عرفته قبل خمسة اعوام ، في القطار الذي عاد بنا الى بغداد ، وكنا قادمين من تركيا .

قال لي بنفس الهدوء ولكن بشيء من الدهشة التي علقت في أسفل عينيه دون ارادته :

ـ لماذا تخافه اذن ؟

ـ هل قلت هذا عن شريف نادر ؟

ـ لم تقل شيئا معينا ،غير ان شريف نادر هو الاسم الذي نطقت به اكثر من مرة وبخوف غريب .

ـ نعم ، نعم ، هذا امر حقيقي .

ـ صدقني ، لم افهم منك شيئا منذ أن جئت بك الى هنا .

بدأت ملامحه العميقة تنفك بشيء من الحذر ودون ارادته ايضا، ثم انهدرت خيوط من الشك احسستها في عينيه يجرني بها الى واقع اغفلت ما عمقه وما نوعه ، وحاولت ان اجاريه في اسئلته وان اجيبه على ما يريد ،فقد احسست توا باني اقابل وجها يشبه في حدود ما وجه شريف نادر الغامض رغم هدوء هذا الرجل ورغم هياج شريف نادر ـ هذا الفارق العجيب ليس ذا بال في مخيلتي ـ انهما حقا غير متشابهين في بعض العادات التي يمارسانها غير انهما متشابهان تماما بالنسبة لي، او ربما هذا هو الشيء الوحيد الذي بدأت افكر فيه. كنت اهرب من شريف نادر ، وانا الان بين يدي شريف نادر آخر،وبدأت اخوض في ما يشبه التجارب الميكانيكية ، بين آلات حادة جارحة ، بين آلات دقيقة لم اهجس منها غير الوخز المدمر ، كما لو اني هذه اللحظة اندثر مثل ابرة صغيرة بين آلات عملاقة مرعبة ، وفطنت الى اني لم اكبر منذ عشرة اعوام خلت،كان هذا بالضبط نوع احساسي قبل عشرة اعوام وانا امارس الخوف من ابسط ما يمر بي ، لم اكن غير لعبة بسيطة يتناولها من يشاء ويطيح بها من يشاء حتى انتهت كبريائي بين عدد هائل من الناس والشياطين التي تعاد على مخيلتي في الكوابيس ،وفي اليقظة ، وقد تكون هذه نهايتي، فكيف بي ارى شريف نادر او نسخة طبق الاصل من شريف نادر بينما كنت اهرب منه في الخمر واهرب منه في جعجعة الذكريات من حلوها الى مرها، رغم اني اعرف ان ذكرياتي قد انتهت مع الرشفة الثانية من قنينة البيرة واني هنا رجل بلا ذكريات وبلا خدع عادية احيط بها جسدي، فمنذ عشرة اعوام بالضبط وانا واقف بلا حراك امام فوة هذه الاشياء التي اجهلها ، واقف كلعبة سخيفة رخيصة الثمن ، رغم اني

استطيع المراقبة واستطيع التفكير كأي انسان آخر في الدنيا ، ولم ادع لنفسي فرصة ان احارب في مكان من الكون ، سلطت على نفسي هذا الشكل الساذج من القناعات التي ابحث بها لنفسي ان اهدأ ان اركن في زاوية معتمة مثل هارب جاهل ، لا يعرف من اين يهرب ولا الى أين ينجه ، وانحسرت كما في كل مرة بين ألوان هذه الزاوية السوداء، أتعشق اللون الاسود ، الاسود طوال عشرة اعوام .اي طعم هذا ؟ يتسلل كالبخار الى انفي فأشم احتراق شيء كالشواء المنسي ثم المح بوعي داهيء انيقد انتهيت الىحالة من الاستقرار الطيب اكون بها (مقتنعا) بهذه الحالة التي رفضتها في ظروف اخرى، وذلك قد يعني اخر خيط من حقيقتي ـ انا مذبذب بين حالتين ، استقر مرة واهتاج مرة ثانية ، ارتضي لحظة معينة سرعان ما اسبق نفسي الى رفضها بوعي او بغير وعي مني ـ وهذا ليس له من معنى غير الفشل :

ـ اكون قد فشلت فعلا ؟ ان هذا رهيب !

ـ ولكن اي فشل تعني طالما انت تهرب ؟ ان الانسان الذي يهرب هو فاشل بشكل مسبق ، انت لم تفشل انما انت حقيقة كنت فاشلا ولم تعرف غيرها من حقيقة .

ـ نعم ، فلت ان هذا رهيب ،حتى انني كذبت على نفسي حين ادعيت مرة باني اعرف لون الاستقرار ، انني مثل منفذ بلا غطاءشوكي يحميه ، يزداد رعبا كلما لمسته الريح وكلما لمسته العيون .

ـ اي طعم هذا ؟

ان عيني شريف نادر تشربان عني هذه النداوة التي انبثقت من جلدي الى الدرجة التي اصبحت فيها ازداد جفافا ، بل ان ما يتهيأ لي اكبر من قوة التصور التي افهمها في نفسي (انا احس الان ان الفشل الخارق الذي ادركته كحد مطلق هو الذي يخلع عنيتداوني فلم تكن تلك النداوة الرائعة الا ايماني بكبريائي وايماني بوجودي وها انا كما اعرف لون انتهائي : جافا مقرفا يدفعه الفشل الى الرعب المطلق) الرعب فحسب كحقيقة اعجز عن ردها مهما حاولت .

انني ابكي من جديد :

ـ ماذا دهاك ؟ ارى ان خوفك من شريف نادر بلا حدود ، وانت تقول لي ان شريف صديقك انت ؟

حاولت اكثر من مرة فعلا ان أقول له ما يرضيني ـ هذا الحارس الذي يمد عنقه الي ـ او اقول ما يرضيه على احتمال ابسط ، غير اني لم افعل غير اهانة وجهي اكثر وانحداري الى هاوية من العتمة الزائدة .

ـ نعم ، فلت ان شريف نادر صديقي ، لكنه .. لكنه نوع آخر غير ما تعرفه من الاصدقاء .

ـ اقول ايضا باني لم افهم ،حتى اني بدات اشك في وجود (شيء) اسمه شريف نادر .

ـ سوف تسمع اسمه دون شك، فهو موجود فيهذه المدينة بالذات .

ـ ثم يضحك ، استطيع ان اصدق اي شيء الا ان يضحك ـ هذا الحارس الذي كان طيبا وفورا وكان هدوؤه يعني لدي الكثير ـ بدا يضحك في خشونة عائبة ، حتى اني ابتعدت الى الخلف بحذر . بهذا الحذر الذي اقتربت منه الى شريف نادر ، ورايت اسنانه وهو يضحك، كان بعضها مقلوعا من الجذر ، وبعضها متآكل في اجزاء مهمة ، وامتلات بالقرف ، بدا لي من جديد ان اسنان الحارس ستظل مفتوحة هكذا طوال الليل ، او انها لن تغلق الا على شيء طري قد يكونلحمي؟ وكان هذا وحده يكفيني ويقنعني بالهرب ـ نعم اريد ان اهرب منه ـ انا أحس الان كل فرف العالم من بين فكيه ، فان بقائي هو النهاية الجائرة التي أرفض ان اعيشها على يديه .

جذبت المعطف عن ظهري والقيت به عند رجليه ومرقت الىالخارج اركض ، اركض بقوة مريعة لم تصادفني في زمن ما حتى ولا قبل تلك الاعوام العشرة ، نظرت الى الخلف فلم اجد غير طيفه يتبعني بنظرة بلهاء عاجزة عن الفهم، وتهيأ لي اني لن أكف عن الركض فان هاتين السافين تسابقان الهواء البارد دونما عجز حتى اني بعد دقائق قليلة لم أعد احس بهما فراحا يطيران في حمية ممتعة عظيمة ، كنت وحدي في الشارع ، وحدي في المدينة ، اركض ، ولم اعد التفت الى الوراء ، بدأت اهرب بقوة ، كنت املك في اعماقي الليل الذي اهملته خلفي ، وارى في هذا السباق العظيم وجوه النساء ، وعذوبة المطر ، كنت ادخل في مملكة خاصة ، وحدي فقط، الكل نيام في هذه الساعة من الليل ، ليس من احد ، لم اكن لحظتها افكر اين بيتي ، اين الجسر الطويل الذي يؤدي بي الىمنزل شريف نادر، اخذت اركض بقوة خارقة غير مألوفة احس بها كأني اسابق اللهفة ، اسابق الحب، اسابق التلهف ، اسابق الفضاء، ولم اعرف السبب ، الا انها كانت اعظم لحظات عمري حتى الان .

بغداد

عبدالستار ناصر

الماركسية والمسألة القومية

بقلم

جورج طرابيشي

اول دراسة موسعة ضافية في اللغة العربية عن موقف الماركسية من المسالة القومية بمختلف صورها، وفيها فصل طويل عن موقف الماركسية من القضية اليهودية .

صدر حديثا عن دار الآداب ، بيروت

٥٠٠ ق. ل.